ISSN 1605 – 427X

مجلة العلوم والتقانة

خطأ مطبعي
هذا هو المجلد 11 (1) 2010م

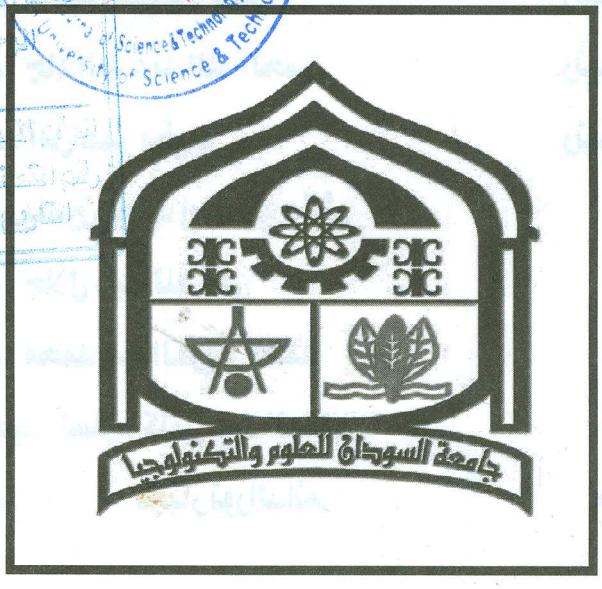

مجلة علمية محكّمة

تصدرها : جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

http://jst.sustech.edu/

القيم الأخلاقية و الجمالية في شعر ابن خفاجة الأندلسي" دراسة تحليلية وصفية"

مجدي عبد المعروف حسين أحمد

أستاذ الأدب والنقد بقسم اللغة العربية – جامعة سنار

ملخص البحث :

إن القارئ لأدب ابن خفاجة الأندلسي ليتملكه العجب من اتصاله بالطبيعة ، وإبداعه في تصويرها وتشخيصها ، وامتزاجها بعاطفته وخياله ووجدانه امتزاجاً غريباً، قلما نجد مثله في أدبنا العربي .

فأردت أن أقدمه من خلال هذا الجمال الطبيـــــعي الكائن في الأنـــــدلس ، وهذه الصورة المرئية المبدعة التي قدمها لنا، وانعكاس هذه الصورة على جمال خلقه وحسن مودته بالقيم النـــبيلة والأخلاق الفاضـــلة ؛ لأن الذي نفسه بغير جمال لا يهب الآخرين حسناً وألـــقاً ، فكان هو الواهب الذي جسد جمال الأندلس ، وجمال نفسه الزكية المملوءة حبا وكرما وصفاء .

الكلمات المفتاحية:

القيم الاخلاقية ، شعر بن خفاجة ،الاندلس

ABSTRAC:

Reader of Literary works written by Ibn Khafajah Al-andalusi will be amazed of his deeply contact with nature, and creativity in the diagnosis and portraying it. Nature is gently mixed with his emotion and imagination, in a strange combination rarely found in Arabic literature.

I would like to introduces him through this natural beauty, located in Andalusia, and this creative visual image presented to us, and its reflection on the beauty of his morality and noble values. Of course one who has no beauty, can't afford to provide other the same. So, Ibn Khafajah has lovely embodied the beauty the of Andalusia

مقدمة :

الحمد لله الذي علَّم بالقلم،علَّم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على من أُعطى جوامع الكلم ، فكان أفصح من نطق بالضـــاد،وعلى آله وصحبه خير العباد،وعلى من ورد مشرعهم وترسّم خطاهم إلى يوم الدين. وبعد ... فيقال إن الشاعر ابن بيئته،وبيئة ابن خفاجة كانت تخلب الألباب بطبيعتها الساحرة ومرآها الجميل،حتى أن الشاعر استفز مشاعر كل من يقرأ له عن طبيعة الأندلس أن يتوق شوقاً لو رآها رأي العين،فحقا استطاع الرجل أن يحرك هذا الجمال ويستدعيه محسوساً ملموساً ماثلاً قبالة الشخص،وأن يجسّد كل تفاصيل المكان بجماله وألقه،فحاولت جاهداً أن أقدم هذه الصورة وانعكاساتها على نفس الشاعر والمتلقي،فقدمت القيم الأخلاقية في شعر ابن خفاجة ، وتأثير البيئة على هذه القيم،ووقفت على قمة هرمه الإبداعي – قصيدة الجبل– محللاً ومناقشاً ومعلقاً وموضحاً دلالته الرمزية وإيحاءات النص،ثم أوردت القيم الجمالية وآلية الوصف التي جسدها للإبداع في هذا الغرض الشعري،مستصحبا تأثير البيئة على هذا الجمال.

تمهيد:

هو أبو إسحاق إبراهيم أبو الفتح بن عبد الله بن خفاجة،ولد سنة(450) للهجرة بجزيرة شُقر بين شاطبة وبلنسية ،وماء نهرها يحيط بها من جميع جهاتها.[cxvi] وهو عربي من قبيلة بني خفاجة،وهي من القبائل التي هاجرت إلى الأندلس إبان الفتح،يقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجة في كتابه "الأدب الأندلسي" ": لما فتحت الأندلس عام 92هـ،واستقرّ بها المسلمون أقبلت القبائل العربية على الهجرة إليها أفراداً وجماعات،وكان ممن هاجر إلى الأندلس جماعة من القيسيين والعامريين والعقليين والخفاجيين."[cxvii]

يقول ابن حزم :"وخفاجة بطن ضخم منهم النحوي محمد بن معارك المعروف بالعقيلي بقرطبة".[cxviii] عاش ابن خفاجة حياة هادئة،ولم يتصل بأحداث السياسة أو يشارك في الأحداث المضطربة التي مرّت بها الأندلس في عصره ، اللهم إلا بقليل من المديح أو الرثاء لبعض الشخصيات.[cxix] أما عن ثقافته فقد"نشأ ابن خفاجة في أسرة علم وأدب وغير قليل من الثراء،وأقبل على الدرس والتزود بالآداب العربية".[cxx] عمّر ابن خفاجة طويلا وتجاوز الثمانين، واستمتع في شبابه وكهولته بالحياة واقتفى لذاتها مع إخوانه وأصدقائه في أحضان الطبيعة ومجالس اللهو فيها.وفي آخر أيامه اعترته الوحشة ، فبكى صباه،وتنسك إلى أن وافته المنية سنة(533)هـ.[cxxi]

لقد عرف ابن خفاجة واشتهر بوصف الطبيعة فهو: " شاعر الطبيعة الأول في الأندلس وغيرها في أدبنا العربي "[cxxii]. وابن خفاجة علم من أعلام الشعراء العرب المجددين ، وهو بحق شاعر الأندلس ووصافها،وابن طبيعتها الساحرة[cxxiii].

الطبيعة عند ابن خفاجة مكوناً أساسياً في تركيبه وجبلته، فإن لم يكن كذلك فهو أثر من آثار البـــيئة الطبيعية الجميلة التي نشأ فيها. ثم اختار هذا المذهب ؟مستغنياً عن التكسب بالشعر – منقطعاً إلي رؤية الجمال في الطبيعة، كأنما هو يعتقد أنه لو لم يفعل ذلك، ولم يكن قانعاً بما لديه من رزق، لاضطرته الحال إلى أن يكون كغيره من المنتجعين والجوابين[cxxiv]..

القيم الأخلاقية :

ابن خفاجة شاعر مجيد ، والناظر لشعره ليتملكه العجب من اتصاله بالطبيعة،وإبداعه في تصويرها وتشخيصها وتجسيدها،وامتزاجها بعاطفته وخياله امتزاجاً غريباً، قلما نجد له نظيراً في شعرنا العربي،فالرجل جعل الطبيعة المتكأ الذي يستند عليه في قوله الشعري،حتى قال بعضهم عنه : إنه ينزع عن قوس الطبيعة في سائر أغراضه.من هنا أردت أن أوسع دائرة الجمال عند ابن خفاجة ليتعاضد مع جمال نفسه، جمال خلقه؛لأن الذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً.وديوان ابن خفاجة مليء بمنظومة من القيم الأخلاقيه؛لأن جمال الأندلس طبيعة وإنساناً،هذّب نفسه،وجعله يتعاطى هذا الجمال ويتفاعل معه،ويرى الحياة بمنظار الجمـــال والتفاؤل،وسنحاول في هذه الدراسة،تتبع بعض القيم الأخلاقية وتحلـــيلها ،وأثر ذلك في نفس الشاعر.

الأخلاق : يقول ابن خفاجة : يامُلتَقى الخُلقِ الشَريفِ وَهِشَّةَ الوَجهِ الطَليقِ[cxxv]

تتمثل قيمة الجمال في اكتمال الخلق وحسنها،قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا.»[cxxvi]. فالأخلاق الحسنة معبر إلى قلوب الناس ووجدانهم؛لأن ديننا الحنيف يحضنا على معاملة الناس عموماً بالحسنى،فالإنسان أيا كان فتجمعك به أخوة الإنسانية والبشرية،زائداً على ذلك أخوة الإسلام للمسلمين. فلمَ نقبح أخلاقنا،ونتجاوز الآخر تكبراً وتبختراً ؟ أما عن الوجه الطلق، البشوش،فهي محمدة وصدقة ،وقلما يطلق الناس في زماننا هذا أسارير وجوههم ابتساماً يريح الأعصاب،ويذهب تكدر الحياة ورهقها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"تبسمك في وجه أخيك لك صدقة"[cxxvii]. فما أسهل أن نجمع الحسنات بالابتسام،وما أسهل

الابتسامة نفسها ،ولما لا يكون الابتسام؟ والشاعر يحيط به هذا الجمال من نهر وخضرة ووجه حسن وطبيعة فاتنة في الأندلس .

الكرم : ويقول أيضا : فَرَوَّعَ حتّى نُجومَ العَلاء وَضَعضَعَ حتّى سَماءَ الكَرَم[cxxviii]

فالموصوف قارب نجوم العلياء رفعة وعلوا، فأصبح ساطعا ذا بريق في سماء الكرم والجود،وهذه قيمة الأكرمين في عطائهم ونوالهم ،ويذكر قائلا :

فَقَبّلتُ كفّاً أتحفَتني بعِلقِهِ وَحَقٌّ لِكأسِ الراحِ أن يُكرمَ الكَرَمُ[cxxix]

فقبّل كف العطاء،وحق لكأس الراح أن يكرم صاحب هذا العطاء؛لأنه هو الكرم بنفسه،ويذكر آخر:أن الكرم لو تجاوز الموصوف بالأفعال من غير عناء الاحتفاء،ورق الإخلاص لا التودد،فقد حرم نيل الكمال،وعدل عن الحقيقة إلى المحال ، ويقول الببغاء في ذلك :

فَلَو عَدا الكَرمُ المَوصوفُ راحتَهُ عَن أن يُجاوِزها لَم يُكرم الكَرَمُ[1]

ويقول ابن خفاجة : يُنَوِّرُ بِالبِشرِ أخلاقَهُ وَيَجري بِكَفّيهِ ماءُ الكَرَم[cxxx]

هذا البهاء والسناء ليس جسماً مضيئاً أو عاكساً للضوء ؛وإنما هو بحسن خلقه وجمال مقصده ورهافة حسه، فالماء يجري بكفيه دلالة وكناية عن كرمه وعطائه،واستمرارية هذا العطاء المستمد من قيم الطبيعة والتي يعيش الشاعر في حالة تصالح معها .

الحياء : يقول ابن خفاجة : حَمَلَت وَحَسبُكَ بَهجَةٌ مِن نَفحَةٍ عَبَقَ العَروسِ وَخَجلَةَ العَذراء[cxxxi]

قال:هي حملت الحسن والبهجة والجمال،فرائحتها زكية طيبة، وحياؤها وخفرها كحياء عذراء لم تدخل عوالم الدهشة بعد، ويقول :

لَبِسَ الرِداءَ مِنَ الثَناء مُطَرّزاً فَوقَ القَميصِ مِنَ الحَياء مُعَصفَرا[cxxxii]

---

[1] ـ الموسوعة الشعرية .

الموصوف لبس هذا الرداء الذي طرّز بالثناء، ومن فوقه قميص أبيض أحمرّ من الحياء ، كأنه صبغ بهذا اللون الأحمر، وربما يقصد ممدوحه نفسه ، فإشارة القميص إلى الملابس الداخلية أو ربما يقصده هو،مثلما قال عنترة بن شداد:

فَشَكَكتُ بِالرُمحِ الأَصَمِّ ثِيابَهُ   لَيسَ الكَريمُ عَلى القَنا بِمُحَرَّمِ [cxxxiii]

فالرمح يخترق الصدور ، وليس الثياب ، وابن خفاجة يشير إلى حياء ممدوحه ، وليس صبغة القميص .

ويقول ابن خفاجة : تولي الأَيادي عَن يَدٍ نَزَلَ الندى   مِنها بِمَنزِلَةِ المُحِبِّ المُكَرَّمِ [cxxxiv]

هذه الأيادي الكريمة الندية تمّن عليه كما يمّن الندى على الأوراق والسحب بحبيبه،وشطر البيت الثاني من معلقة عنترة ، ضمنه ابن خفاجة في بيته الشعري هذا ، فيقول عنترة :

وَلَقَد نَزَلتِ فَلا تَظُنّي غَيرَهُ   مِنّي بِمَنزِلَةِ المُحَبِّ المُكرَمِ

ومعناه نزلت قريبة مني قرب المحب المكرم. وإنما عدّي بمن،لكون معناه بمنزلة فلان: قريباً قربه أو بعيداً بعده. ويقول ابن خفاجة :

وَالماءُ مِن حَلي الحَياءِ مُقَلَّدٌ   زَرَّت عَلَيهِ جُيوبَها الأَشجارُ .

حتى مياه ابن خفاجة تشاركه الحياء ، فتقلد الماء من حلي الحياء والخفر الذي زرت به جيوب الأشجار . ويقول أيضا :

وَضَفا رِداءٌ مِن شَبابِكَ أَبيَضٌ   وَلَرُبَّما اِعتَرَضَ الحَياءُ فَعَصفَرا

اتسع وكثر رداء شبابك الأبيض الفتان ؛ ولربما اعترضه الحياء، فأحاله مصبوغا ملونا من فرط الحياء . الحياء من شعب الإيمان،وأليق بالمرء أن يتحلى به،ليضفي على نفسه جمال احترام الآخر وخصوصيته،والبعد عن فعل المنكرات حياء من الله سبحانه وتعالى.فامتلأت نفس ابن خفاجة حياءً ورقةً،حتى إن الطبيعة تشاركه هذا الحياء في روعة تلاحم وجمال ووصل .

الصفح : ويقول ابن خفاجة :

وَتَصفَحُ لا عَن ذِلَّةٍ صَفحَ رَحمَةٍ   فَتُرسِلُ دونَ الذَنبِ سِترَ غَفورِ [cxxxv]

ما أعظم أن يكون الصفح لا لذنب اقترفه الشخص، وإنما صفح رحمة وود ، فرســـــائل صفحك المحمود دون ذنب ، وهذا أعظم ستر أن تصفح على الدوام ،وهذا تصالح عميق بين الشاعر ونفسه والآخرين.

العفة: العفاف من المروءة،ومن كمال خلق الإنسان.قيل للأحنف: "ما المروءة؟ قال: العفة والحرفة." [cxxxvi]،عندما يتجلى المرء ، وتأتي له الدنيا طائعة ، يتركها رغبة في مثوبة الله ؛ لأن اكتمال المروءة من شيم الأحرار ،ونزاهة الفعل من خصال الأكرمين ، ويقول ابن خفاجة :

وَزَكا فَشَدَّ عَلى العَفافِ إِزارَهُ إِنَّ العَفافَ لَشيمَةُ الأَحرارِ [cxxxvii]

التسامح :مهما فعلت بي،ومهما حدث من خطوب صغرت أو عظمت،فستجدني أفديك بالغالي والنفيس،فهذه قمة الشفافية والتسامح، فيقول ابن خفاجة :

وَلَو تَسامَحَ خَطبٌ في فِدائِكِ بي لَكُنتُ مَهما عَرا خَطبٌ أُفَدّيكِ [cxxxviii]

النفس وما يتعلق بها : النفس البشرية متعددة الملامح والأشكال والأنماط ذات دلالات نفسية واجتمـــاعية وثقافية وقبل ذلك دينية ،لقد جاهد برزويه– في كتاب كليلة ودمنة– نوازع نفسه، لردعها عن النظر إلى الآخرين،والتطلع إلى ما عندهم من فضل علم أو مال، طلباً للآخرة،وزهداً في الدنيا التي لا يتعلق بها إلا الفجار–حسب ما يرى فيقول في ذلك: ((ولم أغبط، من نظرائي ومن هو مثلي في العلم وفوقي في المال،أحداً إلا بعين صلاح أو حسن سيرة في الناس قولاً وعملاً،وكنت أقرع نفسي إذا هي نازعتني إلى أن تغبط أولئك وتتمنى منازلهم،وآبي لها إلا الخصومة، وأقول: يا نفس أما تعرفين نفعك من ضرك؟ألا تنتهين عن الرغبة فيما لم ينله أحد إلا قل انتفاعه به،وكثر عناؤه فيه،واشتدت مؤنته عليه عند فراقه)) [cxxxix].هكذا النفس البشرية يجب أن تؤدب وتؤخذ بالشدة؛حتى لا تكون سبباً لهلاك الشخص،وخاصة إذا كان هذا الشخص مفعماً بالجمال ومتذوقاً لأسبابه في الطبيعة ،وفي قرارة نفسه. النفس في حالة فرح للقائه ، فكأنه نعماء وبـــشارة فرح قادم ، فيقول ابن خفاجة :

تَهَشّ إِلَيهِ النفسُ حَتّى كَأَنَّهُ عَلى كَبِدٍ نُعمى وَفي أُذُنٍ بُشرى [cxl]

حمل نفسه على حب الفطام،وأن تكف عن الصغائر،والنفس تهفو وتتطلع،وخاتلها حسن الصبر الذي هو أكثر رجحانا،فيقول : فَرادَعَت عَنها النَفسَ وَالنَفسُ صَبَّةٌ وَراوَغتُ حُسنَ الصَبرِ وَالصَبرُ أَرجَحُ [cxli]

يتساءل ابن خفاجة ما مصير النفـــــــس النفيسة ، عندما تهجر الجـــــسد ؟ فيقول :

ما تَفعلُ النفسُ النفيسةُ عِندَما تَتهاجَرُ الأرواحُ والأجسادُ [cxlii]

ويستمر ابن خفاجة في تساؤلاته ونداءاته وتدبره للنفس البشرية ، وكأنه فيلسوف يناجي النفس ، فيقول :

أ مُنيَةَ النَفسِ حَسبِيَ مِن تَشَكّيكِ أَنّي أُصابُ وكَفُّ الدَهرِ تَرميكِ [cxliii]

ويقول أيضا: كَفاني رُزءَ نَفسٍ أَن تَبَدّى وَأَعظَمُ مِنهُ رُزءاً أَن يَغيبا [cxliv]

ويقول أيضا : لَها نَفَسٌ يَسري مَعَ اللَيلِ عاطِرٌ كَأَنَّ لَهُ سِرّاً هُناكَ يَريبُ [cxlv]

فهي ملأت بغيابها الحاضر فجاج نفسه عطرًا يفوح في سكون الليل سراً يدعو للشك والدهشة .

الوفاء : الوفاء قيمة إنسانية راقية ، تنم عن الخلق الشفيف والمشاعر المتيقظة ، فلا بد لشاعرنا أن يكون وفيا لوفاء هذه الطبيعة له ، فمن ذلك قوله : أَكسَبَتني خُلُقَ الوَفاءِ وَرُبَّما أَذكَرنَني بِمَواقِفِ العُشّاقِ [cxlvi]

فهي – أي الطبيعة – أكسبته قيمة الوفاء لجمالها وسحرها ، وذكرته بأيام العشق المباح .

فهو لا ينسى صاحبه مهما فرقت بهم الأيام فسيظل ذاكراً له ، حتى ولو تناسى الأصحاب ، فيقول في ذلك :

فَلَستُ بِناسٍ صاحِباً مِن رَبيعَةٍ إِذا نَسِيَت رَسمَ الوَفاءِ صِحابُ [cxlvii]

ألا تري أن الذي يفي للطبيعة هو أقدر على الوفاء لصاحبه وسليل معرفته ومستودع سره .

الصداقة والصحبة :

الشدائد محك الرجال ،فهي امتحان للإنسان ، يظهر فيه مبلغ حزمه وغرمه ،ومقدار وعيه وتمكنه من نفسه . والناس في مواجهة ما يبتلون به من محن ومصاعب ومشكلات ، تحتل الصداقة محلاً كبيراً في شعر ابن خفاجة ، فهو يدعو إلى صداقة لا تهن أمام أي ظرف ؛لأن الصداقة في نظره بلسم الحياة وطيبها ،والصداقة بذل بلا حد ، ووفاء إلى أقصى حد ، (أبذل لصديقك دمك ومالك) [cxlviii] . فهذا الوفاء والسلام للصاحب الذي أبكى الربع لفراقه ، ولكنه موجود بذكراه الطيبة بينهم ، فيقول :

عليكَ سَلامُ اللَهِ مِن صاحِبٍ قَضى فَأَجهَش رَبعٌ بَعدَهُ وَجَنابُ [cxlix]

فالبكاء على هذا الصاحب تسرية لاحتقان الأسى في نفسه، وتنفيس عن مصابه،بذكراه العالقة بالوجدان في أيامهم الأولى ، فيقول : فَسَلّى بِما أَبكى وَسَرّى بِما شَجا وَكانَ عَلى عَهدِ السُرى خَيرَ صاحِبِ [cl]

الصبر :لابد للصبر أن يكون العزاء في تقبلنا لأقدارنا، فلشاعرنا وهو صاحب الوجدان والجمال أن يبكي من هول مصائبه،فإذا صار الصبر الجميل خلقاً بالياً أي انعدم – فأجدر بشاعرنا أن يكون كذلك ، فيقول : وَمِثلِيَ يَبكي لِلمُصابِ بِمِثلِهِ فَإِن أَخلَقَ الصَبرُ الجَميلُ فَأَخلِقِ [cli]

الحلم : هذا الفقيه كم له في مقاعد الحلم الجميل حكمة وتجربة وموعظة ، يحل بها مغاليق الأمور،ويبسط فيها عقد القوة بأمر الله سبحانه وتعالى، فيقول :

وَقَولٍ لَهُ في مَعقَدِ الحِلمِ حِكمَةٌ يُحَلُّ بِها في اللَهِ طَوراً وَيَعقُدُ [clii]

تأثير البيئة على قيم ابن خفاجة الأخلاقية :

نشأ ابن خفاجة في – جزيرة شقر – التي تقع بين شاطبة وبلنسية ، وهي مدينة منعزلة في شرقي الأندلس مشهورة بجمال طبيعتها ، ونهرها الذي يحيط بها. ولقد كانت من أجمل بقاع الدنيا . وقد هام ابن خفاجة بحبها وصرف شعره لوصف طبيعتها الساحرة،حتى إن من يقرأ ديوانه يجد الوصف هو السمة الغالبة عليه ، حتى قصائد المدح والرثاء لا بد أن تجد فيها وصفا للطبيعة . فلنحاول أن نضع خطوطاً عريضةً لتأثير هذه البيئة على قيم ابن خفاجة الأخلاقية :

الشوق والهيام للوطن،وهي قيمة الانتماء إلى عزيز،فتراب الوطن أغلى من ذهب الدنيا وما فيها،فيقول ابن خفاجة:

فَقُلتُ وَلي دَمعٌ تَرَقرَقَ فَانهَمى يَسيلُ وَصَبرٌ قَد وَهى فَتَضَعضَعا
أَلا هَل إِلى أَرضِ الجَزيرَةِ أَوبَةٌ فَأَسكُنَ أَنفاساً وَأَهدَأَ مَضجَعا
وَأَغدو بِواديها وَقَد نَضَحَ النَدى مَعاطِفَ هاتيكَ الرُبى ثُمَّ أَقشَعا [cliii]

جزيرة شقر التي نشأ فيها شاعرنا ، يكفي أن تهب على ساكن هذه الجنة نفحة من نسيم عليل ليصبح مع شاعرها ابن خفاجة في التوافق مع هذا الجمال ، وهذا دلالة على سلطان هذه الجزيرة على النفس البشرية،فيقول :

إنَّ لِلجَنَّةِ في الأنــــدلُسِ مُجتَلى حُـسنٍ ورَيّا نفَـــسِ
فسَنا صُبحَتِها مِن شنَبٍ ودُجى ظُلــمتِها من لَعَـــسِ
فإذا ما هبَّتِ الريحُ صبّاً صِحتُ وا شَوقي إلى الأندَلُسِ [cliv]

صفاء القلب وحسن السريرة والتصالح مع نفسه ، ونبذ الصفات الدنيئة ، كالنفاق وغيره ، فيقول :

ألا قل للمريض القلب مهلاً فإن السيف قد ضمن الشـــفاء
ولم أر كالـــنفاق شكاة حر ولا كدم الوريـــــــد له دواء
وقد دحى النجيع هناك أرضاً وقد سمك العجاج به ســـــماء [clv]

امتلأت نفس ابن خفاجة بالحكمة والموعظة ، وحسن تدبير الأمور ، فيقول :

يا ضاحِكاً مِلءَ فيهِ جهلاً أحسنُ مِن ضحكِكَ البُكاء
وهَنتَ حِسّاً وهُنتَ نفساً فلا ذكـــــاءَ ولا زكاء [clvi]

كثرة الضحك تميت القلب،ولو علمنا ما ينتظرنا لضـــحكنا قليلا ، وبكينا كثيرا،وضعف الحس،وأصابنا الذل،فجانس بين هَنت وهُنت،وبين الذكاء وهو الفطنة ،و الزكاء وهو النمو .

التأمل بذكر الموت ، فيقول :

يا أيُّها النائي ولَستَ بمُســمِعٍ سكنَ القُبورُ وبيننا أســدادُ
ما تفعَلُ النفسُ النفيسةُ عِنـدَما تتهاجرُ الأرواحُ والأجساد
لَم يدرِ إلّا يومَ موتِكَ ما الأسى فكأنَّ موتكَ للأسى ميلادُ [clvii]

المشاركة الوجدانية والهمس والبوح للطبيعة باعتبارها كائناً جميلاً يحفز على النقاء والصفاء وجمال النفس ،فهو يصورها على نحو إنساني تملؤه الحركة والنشاط ، وفي ذلك يقول :

وإنّي وإن جئتُ المَشيبَ لَمــــولَعٌ بِطُرَّةِ ظِلٍّ فوقَ وَجهِ غـــدير
فيا حبَّذا ماءٌ بِمُنعَرَجِ اللـــــــوى وما اهتزَّ من أيكٍ عليهِ مَطير
وقد لاحَ وجهُ الصُبحِ يَــــــندى كأنَّهُ وراءَ قِناعِ اللَيلِ وجهُ بشيرِ [clviii]

سخّر ابن خفاجة معارضته للشعراء ؛لاقتطاف أجمل أزهارهم وتضمينها بستانه الأنيق ، " وأما التضمين فهو أن يضمن الشاعر شيئاً من شعر غيره مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً "[clix] ، كما يعرفه الدكتور شوقي ضيف بأنه :" استعارة الشاعر الأبيات وأنصافها أو بعض الألفاظ في حشوها من شعر غيره وإدخالها في أثناء أبيات قصيدته "[clx] .

مجلة العلوم والتقانة ـــ

وابن خفاجة نفسه كان يدرك شدة إلحاحه على الطبيعة واستغلاله لها في شعره،وكان هو نفسه حائراً في تفسير هذه النزعة المتمكنة،فهو يقول عن نفسه مستعملا ضمير الغائب:"إكثار هذا الرجل في شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وجرية ماء ورنّة طائر ما هو إلا؛لأنه كان جانحا إلى هذه الموصوفات لطبيعة فطر عليها وجبلة،وإما؛لأن الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره ... حتى غلب عليه حب ذلك الأمر،فصار قوله عن كلف لا تكلف،مع اقتناع قام مقام اتساع،فأغناه عن تبذل وانتجاع"[clxvi].

فيرجح أن يكون حب الطبيعة لديه أمراً في تركيبه وجبلته ،فإن لم يكن كذلك فهو أثر من آثار البيئة الطبيعية الجميلة التي نشأ فيها (ولأجل هذا سمي "بالشاعر البستاني")، ثم اختار هذا المذهب– مستغنياً عن التكسب بالشعر– منقطعاً إلى رؤية الجمال في الطبيعة،يعتقد أنه لو لم يفعل ذلك،ولو لم يكن قانعاً بما لديه من رزق،لاضطرته الحال إلى أن يكون كغيره من الشعراء الجوابين الذين يتكسبون بشعرهم[clxvii].وقد سماه الأندلسيون"الجنان"نسبة إلى جنان الأندلس وتصويره لها تصاوير بديعة[clxviii].ولقبه المقري" بصنوبري الأندلس"لعنايته بوصف الطبيعة ،ولاسيما الجانب الضاحك منها[clxix]. نلحظ هذا العفاف واللطف عند ابن خفاجة في نأيه عن المدح التكسبي الذي ترفضه نفسه ويأبى عليه وجدانه المفعم بالجمال هذا السلوك. لقد وصف ابن خفاجة الطبيعة بجميع مظاهرها وأنواعها فقد وصف الطبيعة الصامتة والطبيعة الحية مباشرة،ولم يستطع أن ينسى الطبيعة حتى في أغراضه الأخرى.وكان الشعور الغالب على هذا الوصف المرح والبشر إلا ما كان من أمر وصفه للجبل إذ ساده التأمل والنظرة الحزينة.

منتخبات من شعر ابن خفاجة في وصف الطبيعة :

لعل خير ما يصور جمال هذه البلاد وطبيعتها،وحب أهلها لها ، ما قاله ابن خفاجة،شاعر الطبيعة الأكبر في الأندلس،ومصور جمالها الأخاذ،حيث يقول :

يا أهـــل أندلـــــسٍ لله دركم ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجار
ما جنّة الخــلد إلا في دياركم ولو تخيّرت هذا كنت أختار
لا تحسبوا في غدٍ أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنّة النار[clxx]

مجلة العلوم والتقانة ـــ

نجد أن ابن خفاجة يمتزج في الطبيعة ويذوب في تفاصيلها، فيشعر بالبشر يحيط به عندما يحل في مغانيها،وإذا بها ذات جمال ودلال وبهاء، فلنسمعه يصفها وقد اختالت زينة وبهجة:

وكمامةٍ حدر الصباح قناعها عن صفحة تندى من الأزهـــار
في أبطحٍ رضعت ثغور أقاحه أخلاف كلّ غمامةٍ مـــدرار
وقد ارتدى غصن النّقا، وتقلّـدت حلي الحباب سوالف الأنـــهار
والريح تنفض بكرةً لمـــم الرّبى والطّلّ ينضح أوجه الأشـــجار
متقسّم الألحاظ بين محـــــسنٍ من ردف رابيةٍ وخصـــر قرار[cbxi]

والصور تتراكم في النص،فالصباح ينزع ستر الظلام عن الأكمام ،فتبتسم الأزهار الندية،وأفواه الأقاحي ترضع من ثدي الغمام المدر للماء الضاحك بشاشةً وجمالاً،والندى يصدر دعاشات من المياه على أوجه الأشجار،وهو يوزع النظرات بين ردف أنيق وخصر بديع .

وعلاقة الشاعر بالطبيعة علاقة حب ووجد،والأبيات الآتية تمثل نفسيته المحبة التي يتوزعها جمال الطبيعة وجمال الإنسان: وَإِنّي وَإِن جِئتُ المَشيبَ لَمـــولَعٌ بِطُرَّةِ ظِلٍّ فَوقَ وَجهِ غَـــديرِ

وَنَعسَةُ طَرفِ العَينِ مِن سِنَةِ الكَرى لِرَجعِ خَريرٍ أَو لِشَجوِ هَديرِ[clxxii]

وقال ابن خفاجة أيضاً: وعشي أنس أضجعتـني نشوة فيه تمهد مضـــجعي وتدمـــــث
خلعت علي بها الأراكة ظـــلها والغصن يصغي والحمام يحدث
والشمس تجنح للغروب مريضةً والرعد يرقي والغمامة تنفـــث[clxxiii]

هذا المساء الجميل الذي سعد بمشهدها العذب،ويستظل بأشجارها في متكأ ممهد وثير،والحمام يحدّث والغصن يرهف السمع إليه،والشمس تبدو في حالة وداع وفراق،فهي تعاني ألم البين لهذا المظهر البهيج،ووميض البرق يرقيها،والغمامة تنفث كما يفعل الراقي في العقد.

وقال يصف الليل :

وَلَيلٍ كَما مَدَّ الغُرابُ جَناحَـــهُ وَســـــالَ عَلى وَجـــــــــهِ السِجِلِّ مِدادُ
بِهِ مِن وَميضِ البَرقِ وَاللَيلُ فَحمَةٌ شـــــرَارٌ تَرامى وَالغَمـــــــــامُ زِنادُ
سَرَيتُ بِهِ أُحَيِيهِ لاحَيَّةُ الـــسَرى تَموتُ وَلا مَـــــتُ الصَـــــــباحِ يُعادُ

بِخَرقٍ لِقَلبِ البرق خفقـــــةُ رَوعَةٍ به وَلِجَفنِ النَجمِ فيهِ ســـــــــــــــهادُ [clxxiv]

وله في وصف الفرس أبـــــيات تتراءى فيها البراعة والجدة في التصوير :

ومطهّم شرق الأديـــــم كأنما ألفت معاطفه النجيع خضابا

طربٌ إذا غنى الحسام، ممزّقٌ ثوب العجاجة جيئةً وذهـــابا

ورمى الحفاظ به شياطين العدا فانقضّ في ليل الغبار شهابا

بسّام ثغر الحلى تحـــسب أنه كأسٌ أثار بها المزاج حبابا [clxxv]

يمتاز أسلوب ابن خفاجة بميله إلى الصنعة،لغرامه بالصور البيانية ، ولكنها صور مبهجة تثير المرح والتفاؤل ، كما شغف أيضا بالمحسنات البديعية ، فقد كان مولعا بذلك حتى جاء أكثر شعره يختال في مطارف التشبيه والمجاز [clxxvi]. واستمع إليه وهو يصف زهرة ، فيقول :

وَمائِسَةٍ تُزهى وَقَد خَلَعَ الحَيا عَلَيها حُلىً حُمراً وَأَردِيَةً خُضرا

يَذوبُ لَها ريقُ الغَمامَةِ فِضَّةً وَيَجمُدُ في أَعطافِها ذَهَباً نَضرا [clxxvii]

واستمع إليه وهو يصف نهراً في بلدته شقر ، حيث يقول :

لله نهر ســــال في بطـــحاء أشهى وروداً من لَمَى الحسناء

مُتَعَطِّفٌ مِثلَ السوارِ كَـــأَنَّهُ وَالزَهرُ يَكنُفُهُ مَجَرُّ ســـــمَاءِ

قَد رَقَّ حَتّى ظُنَّ قُرصاً مُفرَغاً مِن فَضَّةٍ في بُردَةٍ خَضـــــراءِ

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لُجَيْن المــــاء [clxxviii]

فالمسيل الذي يراود خاطرة ابن خفاجة أشهى عنده من لمى الحسناوات،وقد أحاط النهر بتلك المنطقة كأنه سوار،وحوله الزهر في كل مكان كأنه نجوم السماء،ورقّ هذا المجرى كأنه قرص من فضة قد وضع على بردة خضراء،وهي تلك الأرض المعشوشبة،ثم يقول:إن تلك الأغصان الدقيقة التي تميل على النهر كأنها أهداب عينين زرقاوين،وماء النهر سريع الجريان لانحداره،حين بدأت شمس الأصيل تتماوج فوق ماء النهر الذي ينساب كفضة سائلة. و يقول ابن خفاجة في قصيدة وصف الجبل:

وأرعن طماح الذؤابة بـــاذخ يطاول أعنان السماء بغـــارب

يسد مهب الريح عن كل وجهة ويزحم ليلاً شهبه بالمـــــناكب

وقور على ظهر الفلاة كـــأنه طوال الليالي مفكر في العـــواقب

يلوث عليه الغيم سود عمـــــائم لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصخت إليه وهو أخرس صامت فحدثني ليل الســــــرى بالعجائب
وقال: ألا كم كنت ملجأ قاتل وموطن أواه تبــتل تائــــــــب
وكم مر بي مــــــن مدلج ومؤوب وقال بظــلي من مطي وراكــب
فما خفق أيكي غير رجفة أضلع ولا نوح ورقي غير صــرخة نادب
فَحَتّى مَتى أَبقى وَيَظعَنُ صاحِبٌ أُوَدِّعُ مِنهُ راحــــلاً غيرَ آيــــب clxxix

وقفات مع قصيدة الجبل – "القيم الفنية والجمالية في قصيدة الجبل":

يتحدث الشاعر عن جبل اعترضه في مسيره فأثار كوامن شجنه،وأوغل به في آفاق الخيال، فتخيله– مشخصاً إياه– رجلا وقوراً يقتعد الصحراء منعزلاً عن الناس مفكراً فيما ألمّ به من خطوب وإحن،وهذا الرجل يلبس عمامة سوداء من الغيم ،ذيّلها البرق بذؤابة حمراء،وقد أصغى الشاعر إليه وتخيله متحدثاً معه في الليل على الرغم من صمته العميق،فإذا بلسان حاله يقول: إنه كان ملجأ للقتلة والمنقطعين إلى العبادة على حد سواء،وأن ظله الظليل كان مكانا للاستراحة لمن يسير في جوف الليل وفي وقت القيلولة،وكل هؤلاء مضوا إلى حتفهم،وبقي هو،فإذا بالأعشاش التي ترفرف فيها العصافير في قمته تبدو وكأنها خفقات قلبه الحزين،والحمائم التي تنوح ليس إلا نادبات يندبن من ارتحل من وراد هذا الجبل،وأنه– وقد بدأ بدون دمع في مآقيه–قد نزف دموعه كلها على هؤلاء الذين استظلوا به وفارقوه وهو يتساءل إلى متى يبقى في هذه الصحراء يودع الذاهبين الذين لا ترتجى عودتهم. لم يتوقف الشعراء الذين تعرضوا للجبل عند ظواهره وتضاريسه وتفاصيله،فليس فيه ما يفيد النظر أو يملك الحواس أو يستفز الناظر إليه؛لكنهم أعجبوا بعظمته وشموخه وكبريائه وصموده أمام الدهر وتقلباته،فكان بذلك رمزاً للخلود والقوة في مجال المدح،وعظةً واستعباراً في آفاق التأمل والتفكير،فابن خفاجة حينما يقف أمام الجبل في إحدى رحلاته يحس بإجلال وخشوع وكأنه أمام شيخ وقور خبر الأيام عمراً وتجربةً،وعاصر الدهور حلوها ومرها،فمل المقام وسأم البقاء،وكأن لسان حاله ينطق بالكثير ويهمس بالعجيب...وهذا أسلوب يمعن فيه ابن خفاجة بالتشخيص وخلع سمات إنسانية على الطبيعة التي يمثلها هنا الجبل،شاكياً باكياً فيثير بشكواه وبكائه الحزن والشجو في نفس الشاعر،لكنه حزن مسري،وشجو مسل،وهما يبعثان على الراحة والاطمئنان والسلوى،وحين نتأمل النص نلمس فيه نظرة الشاعر

نجاه الحياة،وإحساسه بثقل الوجود بعد ذهاب إخوانه وخلانه،فهذه القصيدة يمكن الاستدلال من جوها العام على أنها قيلت في سن متقدمة لما فيها من نظرات تأملية حزينة تنم عن تجربة عميقة في الحياة،واستخلاص للحكم والعبر،خاصة وإن الشاعر قد عمّر طويلا،فقد تجاوز الثمانين ،فالسأم والضيق بالحياة يتأصلان في أعماقه وليس في الجبل،والتبرم والملل منها ومن طولها موقف للشاعر وليس موقفا للجبل،فابن خفاجة أسقط مشاعره وأحاسيسه ونظراته على الجبل فرأى فيه صورة أخرى له . وهو بذلك يعبر بوضوح عن رغبته في الرحيل عن حياة ليس فيها بقاء أو ثبات ، ويخفف عن نفسه جزع المـــــوت ورهبته ، فهو موقف لا يخلو أيضا من تعزية للـــشاعر وتشجيع له على تجرع الردى الذي رهبه ، وفرق من شبحه .[clxxx]

ومن خلال التحليل السابق ، نستطيع أن نستخلص القيم الجمالية والفنية الأتية :

1- قدم الشاعر في هذه الأبيات لوحة فنية طبيعية متكاملة أردفها بتحليل ذي طابع تأملي فلسفي،فقابل اللوحة برؤية فكرية نفسية.

2- تعبّر هذه الأبيات عن غرض أصيل من أغراض الشعر الأندلسي،هو وصف الطبيعة بتنوعها .

3- النص من بحر الطويل،وهو الذي"أفاده الطول أبهة وجلالة،فهو المعتدل حقا،ونغمه من اللطف بحيث يخلص إليك وأنت لا تكاد تشعر به،وتجد دندنته مع الكلام المصوغ فيها بمنزلة الإطار الجميل من الصورة "[clxxxi]،فقد وفق ابن خفاجة في اختيارهذا البحر.

4- عنصر التشخيص هو الأبرز في هذه اللوحة ، فقد نمثل الجبل شيخاً وقوراً وصفه وصفاً داخلياً وخارجياً، فهو يبدو من الخارج وقد لف عمامة سوداء بذؤابة حمراء حول رأسه ، وهو مطرق تبدو عليه سيماء التفكير ، وهذا وصف داخلي .

5- استخدم الشاعر أسلوب البوح مستعرضا ذكريات هذا الجبل ملخصا من خلال هذا الاستعراض وجهة نظره إزاء الفناء والموت معبراً عن طبيعة الحياة الإنسانية ومفارقاتها .

6- عمد ابن خفاجة إلى التصوير التأويلي: ففسر حركة الطيور داخل العش بخفقات القلب،ونوح الحمام بندب الراحلين،وهذا منهج تحليلي في بناء الصورة الشعرية .

7- وفق ابن خفاجة في اختيار كلمات نصه ذات الطابع الشديد والوقع على السمع،فالحروف الحلقية تنتشر وتتكرر في النص،ولكن في المقابل هناك معجم وجداني عاطفي،فالجزء الخاص بالتصوير والوصف تناسبه تلك الكلمات الجزلة ذات الإيقاعات الضخمة،والجزء التحليلي النفسي

تناسبه الألفاظ ذات الطابع العاطفي الوجداني: الخفق، والأيك، والرجفة، والدمع، والنزف، وما ذلك clxxxii.

الرمز في قصيدة الجبل :

يمثل ابن خفاجة في شخصه وسيرة حياته ، ونتاجه الأدبي والفكري جميعاً ، رمزاً أدبياً وفكرياً ، لكل أديب يجاهد للارتقاء إلى مستوى النزاهة الأدبية والجمالية، فيصل إلى مشارف الإبداع ، فيشعر بسمو مكانته ، وجلال موقعه ، وتتبدى له من علٍ قطاعات واسعة من الجماهير،تخوض غمار فواجع ومآسٍ مادية ، وأخلاقية ، وروحية بفعل ما تتعرض له من صنوف الاستغلال ، والتضليل والخداع الثقافي ، والاجتماعي ، والسياسي ، والروحي الذي عايشه ابن خفاجة في الأندلس، فلا يملك إلا أن يكون منحازاً إلى قيم الحق والعدل والجمال. شعر الرمز والحنين ممتزج بالأغراض الأخرى في الأندلس ، فهاهو عبد الرحمن الداخل يصف نخلة ببستان قصره في قرطبة المسمى "منية الرصافة "، ونحس حتى في تسمية قصره الحنين إلى موطن الآباء والأجداد،والرمز إلى عظيم في الوجدان – الأصل والانتماء – حيث يقول :

تبدت لنا وسط الرصافة نخـلـة   تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى   وطول التنائي عن بنيي وعن أهلـي
نشأت بأرض أنت فيها غريـبة   فمثلك في الإقصاء والمنتأى مـثلي clxxxiii

فالنخلة رمز للعرب في بلاد الأندلس بما تحمله من حنين لا ينقطع إلى الوطن البعيد، وإذا كان الأمير يشاطر هذه النخلة في رمزية واضحة– الحنين إلى الوطن ، فحالها أشبه بحاله ، فهما يشكوان الغربة وألم الفراق .

وشكل التمازج العاطفي بين الشاعر الأندلسي وما يرمز إليه موجود بكثرة في الشعر الأندلسي،ولعل ابن خفاجة صور لنا من خلال هذا التمازج العاطفي العميق بينه وبين الجبل والحلم الذي راوده من مصير هذه الأمة،في رمزية عميقة يصور النكبات المدمرة التي حلّت بالمسلمين في الأندلس،والصراع المرير والطويل بينهم وبين النصارى،وما آلت إليه حال المسلمين من الانهيار والتفكك،وما انتهت إليه مدنهم ودولهم وحضارتهم من السقوط شيئا فشيئا على أيدي الأعداء،كل ذلك أدى إلى أن يتفاعل الشاعر مع أحداث بلاده،فانطلق يصور تلك الأحزان بشعر ينم عن عاطفة صادقة حزينة ، وشعور بالمرارة والأسى والحزن على ضياع

الديار ، وتشتت المسلمين وتفرقهم وتناحرهم على السلطة والجاه؛ بل واتفاق بعضهم وتعاونه مع الأعداء النصارى ضد إخوانه المسلمين.

إذا فجو قصيدة الجبل العام نلمس فيه نظرة الشاعر – نفسه – تجاه تلك الأوضاع المتأزمة،والخطر المحدق ببلاده،وهو يصوّر ضمير الدولة الإسلامية،ويشبهها بالجبل الذي يفر إليه الناس من كل مكان ،فجعل الجبل مركز السيادة في نصه،وقد بدت تهب عليه الرياح والعواصف من كل جهة.وهو صامد يحول دون سير الرياح وهبوبها،ويعتم بهذه العمامة السوداء – ولعلها إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلبس العمامة السوداء في بعض معاركه – والرياح ما زالت تهب بين مهبي ريحين،ويقصد انهزامات الأمة وانكساراتها – وهو يسكب الدمعات ويتأسى على هذه الأوضاع – ورياح الاختلاف والتشتت . فوصف القيم الجمالية للطبيعة في الأندلس من قبل الشعراء،يمثل حالة تلاحم وثيق الصلة بين الشعراء وبيئاتهم،فقد بروا هذه الطبيعة؛لأنها كانت مسرح صباهم ومرتع شبابهم ومحط ذكرياتهم،فلذلك فاح عبقها في شعرهم،وعنوا بتشخيصها على نحو إنساني يتركب من أعصاب و إحساس ، تملؤه الحركة والنشاط .

تأثير البيئة على قيم ابن خفاجة الجمالية :

ربط ابن خفاجة بين الغزل والطبيعة في أسلوب رقيق يترجح بين الصورة والفكرة عبر خيال تمثيلي رائـــع ،يقول : أطلَّ وقد خطَّ في خـــدِّهِ مِنَ الشِّعرِ سَطرٌ دَقيقُ الحُروفِ

فَقُلتُ أَرى الشَمسَ مَكسوفَةً فَقوموا نُصَلّي صَلاةَ الكُسوفِ [clxxxiv]

تصور ابن خفاجة أن جنة الخلد في الأرض هي : الأندلس ، فمن دخلها فقد حرمت عليه النار ، فهي جنة حباهم الله بها ، فلابد من شكر الله على هذا الجمال ، يقول :

يا أهل أندلسٍ لله دركـــــــــــم ماءٌ وظلٌ وأنهارٌ وأشجــار [clxxxv]

مزج ابن خفاجة فلسفة الشعر عنده بالطبيعة ،وأنه محل للتفــكر والتأمل ؛وخاصة في فترة المشــيب، يقول:

وَلِلشِعرِ عِندي كُلَّما نَدَبَ الصِبا فَأَبكى مَحَلَّ أَلحَقَ الشِعرَ بِالشِعرى

فَلَيتَ حَديثاً لِلحَداثَةِ لَو جَـــرى فَأَسلى وَطَيفاً لِلشَبيبَةِ لَو أَســـــرى [clxxxvi]

الشوق والحنين،وهما من أشد المعاني الشاعرية الراقية لصوقا بالنفس الشاعرة،وابن خفاجة شوقه وحنينه دائبين – للشباب، للطبيعة، للجمال،لكل تفاصيل الأندلس، فيقول :

أَطَلَتُ لَهُ رَجعَ الحَنينِ وَرُبَّما بَكَيتُ عَلى عَهدٍ مَضى مُتَقادِمِ[clxxxvii]

ويقول أيضا : وَجاذَبَني رَجعَ الحَنينِ عَلى السُرى كَأَنَّ لَهُ قَلباً هُناكَ مُتَيَّما

ويقول : وَما كانَ يَدري ما الحَنينُ عَلى النَوى وَلَكِنَّني أَعدَيتَهُ فَتَعَلَّما[clxxxviii]

التعلق بالأماني ، واتخاذ الرموز في الحياة ، ومحاولة السـعي للوصول لقممهم ، وهذه قيمة جمالية تدعو للتفاؤل وجمال الحياة والتشبث بأهداب الأمل ، فيقول :

وَلَولا أَمانٍ عَلَّلَتني عَلى النَوى بِلُقيا اِبنِ زَهرٍ ماعَرَفتُ الأَمانِيا

الاحتفاء و الاعتزاز الأنيق بالضيف والسيف والندى ، والمكارم جميعا وفرحة اللقاء ، يجسدها ابن خـــفاجة ، فيقول :

أَما وَاِعتِزازِ السَيفِ وَالضَيفِ وَالندى بِخَيرِ مَليكٍ هَشَّ في صَدرِ مَجلِسِ[clxxxix]

قيثارة ابن خفاجة متعددة الأوتار ، ومتعددة الأصباغ والألوان ، وهو فنان بارع استطاع أن يؤلف النغمة الطروب واللـحن الشجي واللوحة لمتعة،بمعطيات من الأصالة والإبداع واللفظ الجامع بين الأصالة الرصانة والطرافة في حبك متين وبناء حلو يداعب الحواس ويدغدغ المشاعر ويستهوي الأذهان منا والمدارك .

الجمال كائن في ديوان ابن خفاجة؛فكأنه رضع من ثدي الطبيعة الوفية،وتربى بين أحضانها الدافئة،وعاش أندى سنين عمره فيها،فأصبح يجأر باسمها،ويصدع بألحانها الحالمة،وهو النقي الوفي لهذه الطبيعة التي وهبته هذا الجمال .

الخاتمة :

من خلال هذه الدراسة نستطيع أن نقول إن ابن خفاجة يمثل نهضة شعر الطبيعة في الأندلس ، وقد استطاع أن يصور طبيعتها الجميلة والحياة الهادئة في أحضانها ، وأن يذوب في تفاصيلها ، فتشاركه كل حياته عشقاً وجمالاً وتمنياً....أثر جمال طبيعة الأندلس على جمال خلق ابن خفاجة ، فبدأ أكثر تسامحاً وصفاءً ونقاءً ، فهي أي الطبيعة – ممتزجة بأغراضه الشعرية امتزاجاً شفيفاً لا يخلو من عشق وهيام . فالذي يولد وعينيه تتشرب الجمال ، وتحتضن حسن الطبيعة الخلابة ؛لا بد أن تـــكون هذه الطبيعة أكثر مدعاة أن تؤثر في أخلاقه ، وتعامله ، وتفاصيل حياته المختلفة ، كما فعلت طبيعة الأندلس بابن خفاجة .الوصف عند ابن خفاجة لوحة أبدع في تصويرها من خلال زحمة الألوان التي جسدت وشخصت هذا الجمال الأخاذ الفاتن

المراجع:

1- شوقي ضيف،(1998م)،عصر الدول والإمارات، الأندلس،دار المعارف،القاهرة – ص317
1- محمد عبد المنعم خفاجة،(1412هـ)،الأدب الأندلسي:التطور والتجديد،دار الجيل،الطبعة الأولى،بيروت،ص502.
1- السابق – ص 503.
1- السابق – ص 503.
1- شوقي ضيف –عصر الدول والإمارات – ص317,
1- جودت الركابي – (1997م)- في الأدب الأندلسي – دار المعارف – ط4- ص106.
1-إحسان عباس،(2001م)،تاريخ الأدب الأندلسي:عصر الطوائف والمرابطين،دار الثقافة العربية، ط8،القاهرة،ص 204.
1- محمد عبدا لمنعم خفاجة – الأدب الأندلسي – ص503 .
1 - إحسان عباس - (2001م)- تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) - 1 / 208.
1 - ابن خفاجة (الديوان)،(1994م),شرحه وضبط نصوصه وقدّم له د.عمر الطبّاع،دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ,لبنان،ص 170.
1-الأمام مسلم،(2009م)،صحيح مسلم،طبعة الكترونية موافقة للمطبوع،دار الجيل ودار الأفاق الجديد،بيروت,ج7- ص78.
1-الإمام الترمذي،(2009م)،سنن الترمذي،طبعة الكترونية موافقة للمطبوع،دار إحياء التراث العربي، تحقيق احمد شاكر،بيروت،ج4،ص 339 .
1 ديوان ابن خفاجة – ص209.
1- السابق – ص 223.
1 - ديوان ابن خفاجة - ص211.
1- السابق – ص 9.
1- السابق- ص 106 .
1- الزوزني،(1997م)،شرح المعلقات السبع الطوال،تحقيق د.عمر فاروق الطبّاع،دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع،ص215.
1 - ديوان ابن خفاجة – ص 214.
1- الزوزني – (1997م)- شرح المعلقات السبع الطوال – ص 213.
1- ديوان ابن خفاجة – ص 115.
1- السابق- ص 115.
1- السابق- ص 104.
1 - ابن عبد ربه – العقد الفريد –ج1- ص 184
1- ديوان ابن خفاجة – ص 101
1- السابق – ص 174.
1- ابن المقفع،كليلة ودمنة،تحقيق د.عبد الوهاب عزام،دار الشروق، بيروت،الشركة الوطنية،الجزائر،ص62.
1- ديوان ابن خفاجة - ص 117.
السابق – ص 64.
1 - جودت الركابي – في الأدب الأندلسي – 106 .
1- إحسان عباس – تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف والمرابطين – ص 207.
1- السابق - ص 76.
1- السابق - ص 173.
1- السابق – ص32.
1- السابق – ص 39.
1- السابق- ص 161.
1- السابق – ص 43.

1 -عبدا لله ابن المقفع،(2003م),الأدب الكبير والأدب الصغير،تحقيق أحمد زكي باشا،دار ابن حزم،ص44.
1 - ديوان ابن خفاجة– ص 44.
1- السابق- ص 49.
1- السابق – ص164.
1- السابق – ص 90.
1- السابق – ص 145.
1- السابق – ص136.
1- السابق – ص 15
1- السابق – ص 16.
1- السابق – ص 75 76 .
1 - السابق – ص 103- 104 .
1- عبد المتعال الصعيدي – بغية الإيضاح ... -ج2- م النموذجية –ص134 .
1- شوقي ضيف – (1960م) -البلاغة تطور وتاريخ – دار المعارف بمصر – ط3- ص 73 .
1 - ديوان ابن خفاجة – ص 225.
1- السابق – ص 225.
1-ديوان أبي الطيب المتنبي،(1990م)،شرح أبي البقاء العكبري،دار المعارف، بيروت،ج4،ص 281.
1 - ديوان ابن خفاجة – ص 238.
1 - جودت الركابي – في الأدب الأندلسي – 106 .
1- إحسان عباس – تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف والمرابطين – ص 207.
1- السابق – ص 207-208.
1 - شوقي ضيف – عصر الدول والإمارات – ص319
1- جودت الركابي – في الأدب الأندلسي – ص106.
1- ديوان ابن خفاجة – ص 113.
1- السابق – ص107.
1- السابق – ص 103-104 .
1- السابق – ص 59.
1- السابق -79.
1- السابق- ص31 .
1- محمد عبد المنعم خفاجة –الأدب الأندلسي – ص 519 .
1- ديوان ابن خفاجة – ص 129 .
1 - السابق – ص 12-13 .
1 السابق – ص 48-49 .
1-محمد مجيد السعيد،(1980م)،الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس، دار الرشيد، العراق،ص137وما بعدها .
1-عبد الله الطيب،(1989م)، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، الجزء الأول، ط3، الكويت، ص 443-444.
1- محمد صالح الشنطي –(1999م)– في الأدب العربي القديم – ط3 –دار الأندلس - ص191 .
1 -السيد أحمد عمارة،(2001م)،شعر بني أمية في الأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجري،مكتبة المتنبي،ط2،ص 100.
1- ديوان ابن خفاجة – ص 155.
1- السابق- ص 113.
1- السابق – ص 112.
1- السابق – ص 220 .
1- السابق – ص 203 .
1- السابق – ص 204 .

1- السابق – ص 240 .
1 - السابق – ص136